دراسةٌ أسلوبيّةٌ للخطب الباقريّة... خطبةُ الغفلة أُنموذجاً

الباحثة
هيام طعمة مطلك
Hyatwalzwyny@gmail.com
جمهورية إيران الإسلامية
جامعة طهران، كليّة الإلهيّات

الملخص:

لقد احتوت خطبة الإمام الباقر عليه السلام عن الغفلة على دراسة أسلوبيّة ممتعة، فقد تضمّنت القيم اللغويّة وبُعدها الدلالي، كما تضمّنت القيم التركيبيّة وبعدها التركيبي، وكذلك احتوت على العلاقات المتداخلة في وحدة النصّ وأبعادها في السياق، أو ما يطلق عليه بـ(علم المناسبة)، وباتّحاد النصّ وأبعاده تمكّنا من الوصول إلى القيم الجماليّة وبعدها التأثيري بسبب جمال النصّ، وأسلوب الخطبة.

إنّ المقالة تضمّنت المستويين الصرفي، والدلالي؛ وذلك لأهميتهما في الدراسة الأسلوبيّة، فالخطبة مليئة بالمحسّنات البديعيّة، وهو ديدن الإمام الباقر عليه السلام في خطابه، فهي تستوقفك في كلّ موقف، بل في كلّ لفظة تجذبك نحوها، وتجعلك مرتبطاً بعالم المادّة والمعنى بعالم الدنيا والآخرة لما تمتلك من القيم اللغويّة، وكذلك بمستوياتها (الصوتي- الصرفي- التركيبي- الدلالي). ومن النتائج التي توصّل إليها المقال هي: الاهتمام بدور الحروف ودلالاتها، ووحدة النصّ الذي احتوى على التراكيب اللغويّة العميقة المضامين، بل إنّ استعمال الاشارة أو التلويح في الخطبة هو أجمل ما توصّل إليه البحث، وكذلك الأساليب النحويّة من الذكر والحذف والتعجّب والاستفهام الحقيقي والمجاري في عبارات لامثيل لها.

مفردات رئيسة: الإمام الباقر عليه السلام،الخطبة، الأسلوبيّة، القيم اللغويّة، القيم التركيبيّة.

المقدّمة:

إنّ أيّ كلامٍ عن الخطبة، وعن صاحبها لا شكَّ، ولا ريبَ يتطلّب من الحيطة والحذر والاهتمام، فالخطبة كلمة مليئة بالمواعظ والحكم، لذا ينبغي الالتزام بها، فكلام الإمام

الباقر عليه السلام في خطبته كلّه كسبيكة مفرغة لا تختلف حروفه في الطريقة والأسلوب، فهو كلام يغلب عليه حُسن التعبير خالٍ من التكلّف والتصنّع تشعر به أنّه صادرٌ عن فكر عميق، وأدب جمّ، وتذوّق حسن، وتعبير أصيل بليغ. إنّ طبيعة الجمل والتراكيب في خطبة الغفلة، وكيفيّة جريانها على أنساق تركيبيّة معيّنة تحدّد دلالاتها ومعانيها الدقيقة، وما ينطوي خلف نظمها، وحركة عناصرها المكونة لها من مقاصد تواصليّة وتأثيريّة وأسلوبيّة ودلاليّة، فالعمليّة التواصليّة بين الباث(الأب) والمتلقّي(الابن) لا تقف عند حدود الكلمات المفردة، إذ لم يعد للكلمة المعيّنة معنى قاراً خارج حدود التركيب، وخارج حدود السياق الذي ترد فيه تلك الكلمة؛ لأنّ هذا التركيب الذي يجري وفقاً لسياق معين هو الذي يفجّر إمكانات اللغة، ويحكم اتصالها بحقل دلاليّ معيّن دون غيره، وهذا الحقل الدلالي هو الوجود الحقيقي للكلمة، ومفردات الإمام الباقر عليه السلام جزلة فخمة في فصاحتها ممتدّة في دلالاتها، والدراسة الأسلوبيّة تميّز الكلام الفنّي من بقيّة مستويات الخطاب، وكذلك من سائر أصناف الفنون الإنسانيّة، فهي محورٌ جديدٌ في تمييز أسلوب الكاتب؛ لأنّها تُظهر أدبيّة الأسلوب من خلال فرضيّة المستويات المتعدّدة، فهي لم تكن لغة علميّة بحتة كما أنّها لم تكن لغة فلسفيّة.

إنّ خطبة الإمام الباقر عليه السلام حول الغفلة من أبرز الوصايا الوعظيّة والوصفيّة التي خاطبنا بها عن سيرة المرء في حياته، فقد نبّهنا إلى الخصال التي هي سمة من سمات المسلم، ولم تقتصر أهميّة الخطبة على مستوى المضمون فحسب، بل تتعدّى إلى مستويات أُخرى، فسحرها الموسيقي بما تحمل من الطاقات الصوتيّة تتواشج مع الألفاظ، والمعاني في نسيج رائع، بل تكمن الموسيقى فيها في الألفاظ بما تحتوي من أصوات تختلف في وضوحها

السمعي وقدرتها على إبراز المعنى، وتتناسق الألفاظ مع الدلالات الكامنة فيها، وهذه الدراسة الأسلوبيّة تُظهر دلالات خطبة الإمام الباقر عليه السلام من خلال دراسة المستويات اللغويّة فيها، فالمستويات اللغويّة التي تدرس في المنهج الأسلوبي أربعة أو ستّة (الصوتي- الصرفي- النحوي- المعجمي- التركيبيّ- السياقي)، وقد جاء تركيز هذه الدراسة في هذا المنهج على ثلاثة مستويات: المستوى الصوتي: الكشف عن مدى تلائم أصوات الحروف الانفجاريّة المستخدمة في الخطبة مع الدلالات الموجودة فيها، فقد دُرست في هذا المستوى دلالة صفات الأصوات (الجهر والهمس والشدّة والرخاوة)، ودلالة تكرار الأصوات، والمستوى الصرفي:

دُرست في هذا المستوى ظاهرة (زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى)، ودلالات الأفعال الماضية وجموع التكسير، والمستوى التركيبي: دُرست فيه أسلوب التوكيد والإحالة الضميريّة، والمستوى الدلالي: دُرست فيه السجع والطباق، علماً أنّنا لم نجد دراسة أسلوبيّة لخطبة الإمام الباقر عليه السلام أبداً، والله الموفّق.

خلفية البحث:

يُعدّ النثرُ أحد ركني الأدب العربي، فالنثرُ والشعرُ فيهما عُرفت فنون الأدب، لذا يمكن القول: إنّ أدب الإمام الباقر عليه السلام من خلال النصّ النثري في خطبته حول الغفلة يمثّل مرحلة من مراحل اللون الفنّي في الأدب العربي، ولهذا السبب ارتأينا أن نغوص في بحر نتاجه الأدبي.

وأمّا أسلوبيّة الخطبة يبدو أنّها لم تدرس بشكلٍ مكثّف، بل أنّنا لم نجد دراسة أسلوبيّة حسب مطالعتنا المتواضعة، ولذلك شرعنا بالبحث عن كنوز تلك الخطبة، كذلك كان من الضروري البحث عن القيم الجماليّة والدلاليّة في الوصيّة، ولذلك قمنا بدراسة أسلوبيّة للوصيّة.

الخطبة:

((إنّ كلامي لو وقع طرف منه في قلب أحدكم لصار ميّتاً، ألاَ يا أشباحاً بلا أرواح، وذباباً بلا مصباح، كأنّكم خشب مسندة، وأصنام مريدة، ألاَ تأخذون الذهب من الحجر، ألاَ تقتبسون الضياء من النور الأزهر، ألا تأخذون اللؤلؤ من البحر؟ خذوا الكلمة الطيّبة ممّن قالها، وإن لم يعمل بها، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر/١٨) ويحك يا مغرور ألاَ تحمد من تعطيه فانياً؟ ويعطيك باقياً، درهم يفنى بعشرة تبقى إلى سبعمائة ضعف مضاعفة من جواد كريم. آتاك الله عند مكافأة هو مطعمك وساقيك، وكاسيك، ومعافيك، وكافيك، وساترك ممّن يراعيك، من حفظك في ليلك ونهارك، وأجابك عند اضطرارك، وعزم لك على الرشد في اختبارك، كأنّك قد نسيت ليالي أوجاعك وخوفك، دعوته فاستجاب لك، فاستوجب بجميل صنيعه الشكر، فنسيته فيمن ذكر، وخالفته فيما أمر. ويلك إنّما أنت لصٌّ من لصوص الذنوب، كلّما عرضت شهوة أو ارتكاب ذَنْب سارعت إليه، وأقدمت بجهلك عليه، فارتكبته كأنّك لست بعين الله، أو كأنّ الله ليس لك بالمرصاد. يا طالب الجنة: ما أطول نومك، وأكلّ مطيّتك، وأوهى همّتك، فلله أنت من طالب ومطلوب، ويا هارباً من النار، ما أحثّ مطيّتك إليها، وما

أكسبك لما يوقعك فيها! انظروا إلى هذه القبور، سطوراً بأفناء الدور، تدانوا في خططهم، وقربوا في فرارهم، وبُعدوا في لقائهم، عمَّروا فخرّبوا، وأنسوا فأوحشوا، وسكنوا فأزعجوا، وقنطوا فرحلوا، فمن سمع بدانٍ بعيد، وشاحط قريب، وعامر مخرّب، وآنس موحش، وساكن مزعج، وقاطن مرحل غير أهل القبور. يا بن الأيام الثلاثة: يومك الذي ولدت فيه، ويومك الذي تنزل فيه قبرك، ويومك الذي تخرج فيه إلى ربّك، فيا له من يوم عظيم. يا ذي الهيئة المعجبة، والهيم المعطنة: ما لي أراكم أجسامكم عامرة، وقلوبكم دامرة، أمّا والله لو عاينتم ما أنتم ملاقوه، وأنتم إليه صائرون، لقلتم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام/٢٧)))[١].

وحدة النص:

إنّ وحدة النصّ من سمات الخطبة الناجحة، فالنصُّ في خطبة الإمام الباقر عليه السلام بوصفها كتلة لغويّة محكمة البناء والنسج يعتريها تفاعل الوحدات النصيّة فيها من حيث صدورها وكينونتها، نستطيع تحديد الجوانب المحوريّة التي تتفاعل في الوحدات النصيّة، وكيفيّة ترابط هذه الوحدات وتعالقها المنطقي لاسيما أنّ الإمام عليه السلام قد وضع في ذهنه إطاراً محدداً يدير كلامه فيه ليوصلها للنّاس، فتراكيب الخطبة محكمة لا يشوبها لبس، ولا غموض، فهي جزلة فصيحة ممتدّة الدلالة.

إنّ في وحدة النصّ يكون الانسجام الدلالي الداخلي السياقي، وهو انسجام العلاقات الترابطيّة ذات البُعد الأفقي بين وحدات النصّ، ونقصد به تلك العلاقات بين الجمل والعبارات الجارية على لسان الإمام، فهذا المحور يدرس التعاقب وأثره في تكوين الوحدة والانسجام النصيّ، بل يعدّ هذا القسم هو الأشهر في الدراسات الأدبيّة، وكان يسمى بعلم المناسبة، وقد عدّه الرازي وجهاً من وجوه الإعجاز البلاغي في الأدب والقرآن الكريم[٢].

ويبدو أن الإمام عليه السلام كان بعفويّته الثقافيّة يباشر عمله الإبداعي الفوري، فيأتي النصّ متماسكاً في وحدة النصّ، فهو في غاية الإتقان والإبداع، فجريان كلامه في وصيّته على هذا النحو الباهر في قصرها هو دليل على الفعاليّة الخارقة لعقل مبدع موهوب.

مستويات التحليل اللغوي:

وهو تفكيك الظاهرة اللغويّة إلى عناصرها الأوليّة التي تتألّف منها، وينقسم إلى مستويات: الصوتي، والصرفي، والنحوي، والدلالي.

المستوى الصوتي: هو علم الفونولوجيا الذي يُعنى بالأصوات وإنتاجها في الجهاز النطقي وخصائصها الفيزيائيّة.

إنّ علم الأصوات في اللغة يهتمّ بالجانب الصوتي فيها، ويأخذ هذا العلم على عاتقه أموراً كثيرة منها: إحصاء الأصوات اللغويّة وحصرها في أعداد وتصنيفها إلى نوعين:

أولاً: أصوات أو حروف أصلية أو وحدات صوتيّة يُطلق عليها فونيمات، وتشمل الأصوات الصامتة والأصوات الصائتة – الحركات، (الفونيم: يُطلق على أصغر وحدة صوتيّة ذات أثر في الدلالة، أي إذا حلّت محلّ غيرها مع اتّحاد السياق الصوتي تغيّرت الدلالة واختلف المعنى).

ثانياً: أصوات أو حروف فرعيّة يُطلق عليها فونات، (الفون: فهو بمثابة تنوّع نطقي للفونيم أو الصوت الأصلي لا يؤثّر في الدلالة)، وقد عرّف أهل الاختصاص المستوى الصوتي بأنّه: ((هو الأثر السمعي للكلام بتصنيف أصوات اللغة، وتنويع الصوت وفق أساليب القول من أمر ونهي وتعجّب واستفهام، وتعديد صفات الأصوات كالهمس والجهر والرخاوة والصفير والتكرار...))[٣]، ونستطيع من خلاله الوصول إلى الدلالة الصوتيّة عن طريق دراسة خصائص الحروف ومعانيها.

المستوى الصوتي في الخطبة:

ابتدأ الإمام الباقر عليه السلام كلامه بحرف عليه طابع الشدّة، او يُنسب إلى حروف الشدّة، وهي الهمزة، فقد بدأ كلامه بقوله: ((إنّ...))، والهمزة من حروف الشدّة (الشدّة: قوّة الحرف لانحباس الصوت من الجريان عند النطق به لقوّة الاعتماد عليه في مخرجه، وحروفها ثمانية مجموعة في أجد قط بكت، أو أجدت طبقك)، ولو تتبّعنا الحروف التي استخدمها الإمام عليه السلام في خطبته لوجدنا أنّ أكثر الحروف استخداماً هي (حروف الشدّة)، وهذا يعطينا طابعا حول الخطبة بأنّها مليئة بالمواعظ، ولابدّ من الأخذ بها بقوّة كما ورد في القرآن

الكريم: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم/١٢).

ويبدو أنّ الإمام الباقر عليه السلام أراد بكلامه إظهار الحال، وليس المستقبل، أي أنّه يعمل بمواعظ الخطبة في الحال، وهي مثمرة للمستقبل، وليكون التناغم متناسباً مع حرف الهمزة الشديد، وكذلك يستمرّ التناغم مع الحرف الثاني، وهو(النون)، وهو حرف متوسّط الشدّة والرخاوة، كذلك هو حرف يدلّ على الابتلاع، وعدم التضييع، فهو يمثّل المواعظ التي يتمّ فيها التوسّع والاحتفاظ(٤).

تكرار حرف الألف:

الألف من حروف المدّ، وهو حرف جهر وشدّة، فتكراره يُسهم في شدّة الكلام، فالتكرار: ((يُسهم بما يوفّره من دفق غنائي في تقوية النبرة الخطابيّة، وتمكين الحركات الإيقاعيّة من الوصول إلى مراحل الانفراج بعد لحظات التوتر القصوى))(٥).

إنّ هذا التكرار له إيقاع في النفوس منسجم مع الحالة النفسيّة للإمام الباقر عليه السلام، فهو يريد تنبيه الناس الأمّة، وإيقاظها من غفلتها، وكذلك الاهتمام بأمر الموعظة، فقد بلغ الإمام الباقر عليه السلام ذروة الإيقاع الصوتي في كلماته (ألاَ يا أشباحاً بلا أرواح، وذباباً بلا مصباح، كأنّكم خشب مسندة، وأصنام مريدة)، فقد أجاد الإمام عليه السلام في توظيف الألف الموحي للدعوة، وكذلك للقوّة والاهتمام، فقد استخدم أسلوب الاستعارة (أشباح، ذباب، أصنام) والتشبيه (خشب مسنّدة، أصنام مريدة)، وكذلك أجاد في تكرار الألف في قوله: (ويحك يا مغرور ألاَ تحمد من تعطيه فانياً؟ ويعطيك باقياً، درهم يفنى بعشرة تبقى إلى سبعمائة ضعف مضاعفة من جواد كريم. آتاك الله عند مكافأة هو مطعمك وساقيك، وكاسيك، ومعافيك، وكافيك، وساترك ممّن يراعيك، من حفظك في ليلك ونهارك، وأجابك عند اضطرارك، وعزم لك على الرشد في اختبارك، كأنّك قد نسيت ليالي أوجاعك وخوفك)، فهنا وظّف الألف لطلب الآخرة، وعدم الاكتراث بأمر الدنيا، فالألف جاءت بنغمة القوّة الممزوجة بالطلب، ويبدو أنّ الإمام عليه السلام خطب الخطبة بأسلوب سهل بعيد عن الكلام الغريب، لذا جاء كلامه متناغماً مع الجميع، ومتناسقاً بحروفه، ومبدعاً بإيقاعه، وهذه سمّة الأديب الناجح.

المستوى الصرفي:

هو علم المورفولوجيا يتناول البنية التي تمثّلها الصيغ والمقاطع والعناصر الصوتيّ التي تؤدّي معاني صرفيّة، أو نحويّة، ويُعنى بدراسة الوحدات الصرفيّة (المورفيمات) دون أن يتطرّق إلى مسائل التركيب النحوي، ويدرس المستوى الصرفي الصيغ الصرفيّة، واحتمال الكلمة الواحدة وجوهاً للمعاني مثل الإتيان بالمصدر الميمي واحتماله معاني اسم الزمان والمكان، وتغيير المعنى للكلمة باختلاف كميّة حروفها اعتمادا على قاعدة(زيادة في المبنى زيادة في المعنى)[٦].

المستوى الصرفي في الخطبة:

إنّ من الأسس العامّة في اللغة ظاهرة (زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى)، فقد تذوّقها اللغويّون الأوائل في جمعهم لكلام العرب، وفسّرها بعض المنظّرين من بعدهم بتفسيرات لا تزال محتاجة إلى ضبط مواردها، وحصر صورها؛ لأن كثيراً ممّا لا يدخل تحت هذا الأساس، قد يعدّ -وهماً- منها، ولذا فيحتاج الأمر إلى نظريّة ترصد الصور المتعدّدة والمختلفة، ثم تبني القواعد المتحكّمة في إدخال وإخراج غيره.

إنّ ظاهرة (زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى) لها دلالات ربما نلحظها في كلمات الإمام الباقر عليه السلام، فنجده في قوله: (فاستوجب بجميل صنيعه الشكر، فنسيته فيمن ذكر، وخالفته فيما أمر ويلك إنّما أنت لصٌّ من لصوص الذنوب) يأتي بلفظة(استوجب)، فقد جاء بزيادة حرف السين والتاء، وهي لفظة قد أضيف لها حرفان من حروف الزيادة العشرة المعروفة(سألتمونيها)، وهما(والسين والتاء)؛ وذلك للدلالة على مبالغة الكلام الذي قاله للمتلقّين كي يدفعهم للاهتمام بهذه الأوامر، فتكرار الزيادة يقتضي زيادة في المعنى: ((إنّ المبالغة هي زيادة في المعنى تقتضي زيادة في بناء اللفظ))[٧].

إنّ ورود جمع التكسير في هذا المقطع القصير يعطي دلالات نلحظها، بل هي واضحة، فالإمام الباقر عليه السلام يستعمل جمع التكسير(لصوص، ذنوب)، فهو في غاية الأهميّة، والعجيب أنّ بعض أهل العربيّة قلّل من قيمة جمع التكسير، فمنهم مَن كان ((ينادي بحذف باب جمع التكسير من الصرف؛ إذ لا يرى فيه فائدة لدرس الجملة غير أنّ الدرس الصرفي لجمع التكسير مهم جداً))[٨].

إنّ استخدام الإمام عليه السلام جموع الكثرة لانسجامها بدلالتها على كثرة المطالب من الأوامر والنواهي، وكذلك استخدم جمع القلّة لأظهار قلّة الحيلة في إتمام جميع الأوامر، وربما قلّة المتعظين بكلام خطبته، ولو أنعمنا النظر في الجمل الواردة في الخطبة سوف نشاهد سيطرة الجمل المضارعة على الخطبة سيطرة تامّة، والمضارعة تدلّ على التجدّد والحدوث والاستمراريّة أي يحثّهم الإمام عليه السلام على الاستمرار بالعمل بمواعظه.

المستوى التركيبي:

هو المستوى الذي يُقصد به مراعاة الجانب النحوي، أو الوظيفة النحويّة لكلٍّ كلمة داخل الجملة: ((المستوى التركيبي يدرس تأليف وتراكيب الجمل وطرق تكوينها وخصائصها اللغويّة))[٩].

وقد عرّفه الدكتور فريد عوض في كتابه علم الدلالة دراسة نظريّة تعريفاً واضحاً مبسّطاً حيث يقول: ((هو استنباط المعاني العامّة للجمل والأساليب الدالّة على الخبر أو الإنشاء والإثبات أو النفي والتأكيد والطلب كالاستفهام والأمر والنهي والعرض والتحضيض والتمنّي والترجّي والنداء باستخدام الأدوات الدالّة على هذه الأساليب))[١٠].

إنّ بنية اللغة لا تكتفي بمجرد صياغة المفردات وفق القواعد الصرفية، بل تحتاج إلى وظائف معيّنة تسمّى: (الوظيفة النحويّة) وهي التي تحتلّ الكلمات فيها مواقع معيّنة تُشير إليها علامات معيّنة نسمّيها علامات الإعراب في العربيّة والتي تدلّ على نوع العلاقة الوظيفيّة والدلاليّة التي تربط بين الكلمات أو المفردات داخل التركيب، فمثلًا: ضرب موسى عيسى، وضرب عيسى موسى.. بينهما اختلاف مردّه إلى اختلاف الرتبة، فالموقع أو الرتبة يصبح ذا محتوى دلالي؛ لأنّه لا تظهر عليه علامات إعراب فهي أسماء مقصورة.

فالموقع هو ذاته وظيفة: فاعل، مفعول به، تمييز، صفة...، فهو إشارة (الموقع) إلى وظائف، والوظائف هي علاقات دلاليّة تربط العلامات بعضها ببعض في الكلام أو وسط الكلام، وتزيد هذه العلاقات الدلالية تحديداً بالعلامات الإعرابيّة التي هي مؤشّرات إضافيّة، وبالتالي تزيد في بيان نوع العلاقة النحويّة والوظيفيّة والدلاليّة.

المستوى التركيبي في الخطبة:

لو تأمّلنا الخطبة مجدّداً لوجدنا أنّ الإمام الباقر عليه السلام يُكثر من أدوات التوكيد، وهذا الأسلوب يُشعر بوجود اجواء مليئة بالترديد والإنكار، فأغلب الناس يتردّدون في تطبيق جميع الأوامر والنواهي، لذا يحتاجون إلى توكيدات تحثّهم على العمل بالأوامر والنواهي، وربما جاءت هذه التوكيدات لجهل الناس بأهميّة الوصيّة.

ثمّة أسلوب آخر استعمله الإمام عليه السلام، وهو أسلوب الإحالة الضميريّة، فقد كرّر الإمام عليه السلام في خطبته الإحالة الضميريّة، وهذا الاستعمال أو الإحالة نوع من الاستعمالات اللغويّة، وهو عدم ذكر الشيء بلفظه، وإنّما يذكر على هيئة ضمير بعائد أو غير عائد، فالإحالة الضميريّة في هذه الخطبة قد استحوذت على تراكيبها من أول جملة فيها، وتوزّعت على أنواع الضمائر المعهودة في العربيّة كلها تقريباً، إلاّ أنّ بعضها متكاثر في النصّ بصورة أكثر بروزاً وتكراراً من غيرها، ومنها: الضمير الوجودي، ونعني به ضمير المخاطب العائد إلى المتلقين الذين خطب بهم، وضمير المتكلّم العائد إلى الإمام عليه السلام، وضمير المفرد الغائب، فمنها: (كلامي - تأخذون - تقتبسون - قالها - يعمل بها - يعطيك - آتاك - مطعمك - ساقيك - كاسيك - معافيك - كافيك - ساترك - يراعيك - حفظك - ليلك - نهارك - أجابك - اضطرارك - وعزم لك - اختبارك-كأنّك-نسيت- أوجاعك - خوفك - دعوته).

إنّ هذه الضمائر الإحاليّة تعمل على تماسك النصّ وتحكم الروابط بين شخوصه وأحداثه وإن كانت متضادّة ومتناقضة، وأن تضفي على النصّ سمة الإيجاز الذي امتدّت دلالاته واتّسعت، وعدم ذكر الأشياء، أو الأسماء بألفاظها الصريحة يعني التعظيم لها في بعض الأحايين، فهذه الإحالات الضميريّة تلمح إلى مخاطَبٍ قريب، وغائب قريب يريد به التعظيم، وقد عملت هذه الضمائر على تنوّع الحوار الداخلي للنّص بين الإمام والمأموم، وإبراز أبعاد الخطبة، وتحديد أوجه الطاعات، ومن أعظمها الغفلة والنسيان، حيث يقول:((كأنّك قد نسيت ليالي أوجاعك وخوفك، دعوته فاستجاب لك، فاستوجب بجميل صنيعه الشكر، فنسيته فيمن ذكر، وخالفته فيما أمر))، فهنا استعمل الإمام عليه السلام إحالة ضميريّة (الهاء) في (فنسيته- فخالفته)، لكي يحكم القول في أذهان المخاطبين - سواءً كانوا من الحاضرين، أم جميع الناس.

إنّنا بحاجة الى دراسة الخطبة دراسة شاملة إلى الأساليب الإبداعيّة النفسيّة؛ لأنّ دراسة نصّ إبداعيّ كخطبة الغفلة للإمام الباقر عليه السلام في معزل عن سياقاته التداوليّة النفسيّة والاجتماعيّة ظلم بحقّ النصّ نفسه، ومبدعه، فالنصُّ ليس بنية لغويّة مجرّدة، بل هو بنية لغويّة مقاميّة، تواصليّة، فتداعي الكلمة في النصّ الإبداعي لا يمكن أن يتمّ بمعزل عن السياق الذي تتخذه الكلمة من هذا السياق.

إنّ شعرية التوكيد، وشعريّة الحذف في الأسلوب التركيبي، وما يكتنزان من قوّة كامنة في التلميح والاشارة ما يضيفان من شحنة بلاغيّة إلى اللغة، وانزياحاً عن مألوفيّة واعتياديّة السياق، فالتوكيد زيادة لغويّة إذا أحسن استخدامها أعطت قوّة شعريّة للنصّ، والحذف نقص لغوي، فإذا أحسن اسستخدامه أعطى شحنة شعريّة للنصّ، وقد أبدع الإمام عليه السلام في إعطائه مثالاً لشعريّة التوكيد من الخطبة حيث يقول: ((ألاَ تأخذون الذهب من الحجر ألاَ تقتبسون الضياء من النور الأزهر، ألا تأخذون اللؤلؤ من البحر؟))، فهنا جاءت لفظتا (تقتبسون- تأخذون) بصيغة المضارع، ونحن نعلم أنّ صيغة المضارع تفيد التوكيد والتجدّد والحدوث كما أسلفنا آنفاً، وكذلك تكرار اللفظ يوجب التوكيد.

المستوى الدلالي:

إنّ جميع المستويات اللغويّة السابقة (الصوتيّة، الصرفيّة، التركيبيّة) لابدّ أن تكون حاملة للمعاني أي الدلالات، فقضيّة الدلالة من أقدم ما شغلت به الحضارات من قضايا ساهم في دراستها الفلاسفة، واللغويون، والبلاغيون، وعلماء الأصول من العرب وغيرهم، ويُعد البحث الدلالي محوراً من محاور علم اللغة الحديث، فهو يركّز على دور المجاز، والاستعارة، وتحليل المعاني المباشرة، وغير المباشرة للنصّ.

المستوى الدلالي في الخطبة:

لا تكاد تخلو خطب الإمام الباقر عليه السلام من السّجع، فالسّجع يُعتبر من العناصر المهمّة والبنّاءة في بلاغة الأديب، فهو يأتي بالسجع ملائماً لسياق الكلام، والموقف الذي يخطب فيه، والسجع أسلوبٌ رائع استعمله القرآن الكريم في أغلب آياته.

ومن الغريب أنّ بعض أهل الاختصاص يرفض السّجع، بل اعتبره منافياً للبلاغة، لذلك أورد ابن أبي الحديد قولاً لأصحاب علم البيان أنّ قوماً عابوا السّجع، وقالوا إنّ

الخطب الخالية من السّجع والقرائن والفواصل هي خطب العرب، وهي المستحسنة الخالية من التكلف.

وقد ردّ قولهم ابن أبي الحديد بقوله: ((إنّ السّجعَ يدلّ على التكلّف فأنّ المذموم هو التكلّف الذي تظهر سماجته وثقله للسّامعين فأمّا التكلّف المستحسن فأيّ عيب فيه؟ ألا ترى أنّ الشّعر نفسه لا بدّ فيه من تكلّف لإقامة الوزن وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك))[١١].

يأتي الإمام الباقر عليه السلام بكلام مسجوع في خطبته حول الغفلة، حيث يقول: ((ألاَ يا أشباحاً بلا أرواح، وذباباً بلا مصباح، كأنّكم خشب مسندة، وأصنام مريدة))، وأيضاً قال: ((ألاَ تأخذون الذهب من الحجر، ألاَ تقتبسون الضياء من النور الأزهر، ألا تأخذون اللؤلؤ من البحر؟))، وأيضاً: ((وأجابك عند اضطرارك، وعزم لك على الرشد في اختبارك، كأنّك قد نسيت ليالي أوجاعك وخوفك))، وقال: ((انظروا إلى هذه القبور، سطوراً بأفناء الدور، تدانوا في خططهم، وقربوا في فرارهم، وبُعدوا في لقائهم، عمّروا فخرّبوا، وأنسوا فأوحشوا، وسكنوا فأزعجوا، وقنطوا فرحلوا)).

لقد اتّسمت هذه المقطوعات اللطيفة بالسّجع المحكم الأداء، فكأنّ كلّ جملة في صيغتها المجزوءة المختصرة شطر بيت متشابه الوزن والروي، فكلماته مليئة بأنواع التنميق اللفظي والتلوين الصوتي، والدلالي بين عبارات الفقرات، ممّا يجعل الخطبة محكمةً إحكاماً دقيقاً.

لا شكَّ أنّ خطبة الإمام الباقر عليه السلام تستند إلى السّجع تارة، وإلى الازدواج تارة ثانية، وإلى المزج بينهما تارة ثالثة، وقد نجد شيئاً مغايراً لا ينتمي إلى السّجع، أو الازدواج؛ وذلك من خلال توظيف دقيق للإيحاء الصوتي للمفردات، أو تنسيق الجمل في لون من الانسجام الموسيقي بين مقاطع صوتيّة قد تتعادل وقد تتجانس، وقد نراه يرسل القول إرسالاً دون استناد إلى محسن بديعيّ لفظيّاً كان، أو معنويّاً.

وإذا كان الإمام عليه السلام لا يعتمد الأسجاع إلاّ في مواضعها، فإنّ الوصيّة لها نغمة خاصّة، تسلك عبرها إلى نفس السّامع، تتضافر فيها صيغ اللفظ والعبارة وتآلف الحروف فأداؤه هو الأداء المحك، فالمثقّف الذي تفد فيه اللفظة بنوع من الخلق والاشتقاق الخاص بها وبلاغة الأداء ونغميّته لا تتحولان في خطبته إلى غاية بذاتها في نوع من الصنعة البديعة أو ما إلى ذلك، بل إنّ النغم يتآلف مع اللفظة ومعناها، جميعا، بنوع من الوحدة الحيّة المتكاملة التي

لا يحدق البحث بسرّها، فالإمام الباقر عليه السلام ابتعد كثيراً عن التكلّف، لذا جاءت الخطبة متناسقة ومقبولة.

ويبدو أنّ الخطبة خالية من الترادف؛ لأنّ الإمام عليه السلام أستاذ بارعٌ في فنّ البلاغة يُعطي لكلّ لفظة حقّها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعنى، فالمعاني عنده خصوصاً في الخطبة تتسلسل بعضها من بعض في سياق وثيق، والألفاظ عنده تنبثّ عبر نغم أو وزن ذاتي مضمر ممّا يدع فيها إيقاعاً شبيهاً بإيقاع الشّعر، بل إنّنا نلتمس فيه لطافة البلاغة والتنغيم، فهو يضع حروف الشدّة الانفجاريّة في بداية وصيّته؛ ليُشعرك بالاهتمام بأمر الموعظة.

وإذا أقمنا موازنة لهذه الخطبة الرائعة في ميزان النثر الصافي، والمتّزن يبدو أنّها تفوق النثر، فلم تقتصر غاية الخطيب المبدع فيها على إيضاح بعض المواعظ، بل تعدّته إلى الإيجاد والتأثير، فالسّجع المتكرّر في الخطبة له جرس خاص، ونغمة متميّزة يمتاز بها لما يجمعها البناء الواحد المترابط، لذلك يقول الأستاذ المبارك: ((والكلمات التي تكون على بنية واحدة تجمعها رابطة الجرس والنّغمة وتميّزها في الكلام المسموع من غيرها من الألفاظ كما تجمعها أو تكاد رابطة التناظر التزييني في الكلام المكتوب وإن كانت الأولى أوضح وأقوى لذلك كانت أبنية الألفاظ وأوزان الكلم العربي وحدات موسيقيّة ترجع إليها جميع ألفاظ اللغة العربيّة وكان الكلام في حال تركيبه سواءً كان شعراً أم نثراً مجموعة من التراكيب والوحدات الموسيقيّة، إذا أحكم تركيبها وتولّتها يد صنّاع وحسّ مرهف وفكر نافذ كانت إلى جانب أدائها للمعنى قطعة فنيّة موسيقيّة تسابق المعنى إلى القلب عن طريق الحسّ والسمع حتّى أنّ الكلام العربي ليبدوا كأنّه زخارف الفنّ العربي في صوره المتناظرة والمتكرّرة والمتشابهة والمختلفة، وهذا هو سرّ موسيقيّة اللغة العربيّة وجمال إيقاعاتها وحلاوة نغماتها ولاسيما إذا وقع صائغ الكلام على أنواع موفقة من التأليف والمزواجة بين الألفاظ))[١٢].

ويبدو أنّ الإمام الباقر عليه السلام قد ترك الجناس في هذه الخطبة، ونحن نعلم أنّ الجناس من أكثر ألوان البديع موسيقيّاً، وهو ينبع من ترديد الأصوات المتماثلة التي تقوّي رنين اللفظ وتوجد جرساً موسيقيّاً، فهو ضرب من ضروب التكرار يفيد تقوية نغمة الالفاظ، فضلاً عن انّ الدعامة القويّة لتأكيد المعنى وتثبيته.

ومن الأساليب البلاغيّة التي استعملها الإمام الباقر عليه السلام في وصيّته هو أسلوب الطباق،

وهو أسلوب يحقّق بنية ايقاعيّة يطلق عليها الايقاع التقابلي، نحو: ((ما لي أراكم أجسامكم عامرة، وقلوبكم دامرة))، وكذلك: ((فلله أنت من طالب ومطلوب))، فضلاً عمّا يتركه الطباق من أثر في تأكيد المعنى وإيضاحه.

ثمّة أمرٌ لطيف، وهو أنّ الإمام الباقر عليه السلام استعمل الاستعارة، حيث يقول:((يا ذي الهيئة المعجبة، والهيم المعطنة))، فقد استعار عن الإنسان العاصي بالهيم، وهي الإبل العطشة، وكذلك قوله:((ألاَ يا أشباحاً بلا أرواح، وذباباً بلا مصباح)) يستعير بالشبح والذباب عن القلوب المظلمة، والأرواح المسيئة.

الخاتمة:

إنّ أهمَّ ما توصّل إليه البحث من النتائج والأساليب المتنوّعة في الخطبة هو:

١- الكشف عن أهميّة الكلمات في إلقاء المعنى بالنظر الى المادّة والصياغة، وكذلك السجع المتكرّر في: (تقتبسون، تأخذون)،(اظطرارك،أوجاعك)، فضلاً عن الإيقاع النفسي والاجتماعي فيها.

٢- الكشف عن المستويات اللغويّة لما تحوي الخطبة من جماليّات عالية، وخصوصاً في استعمال الزمن، والاحالة الضميريّة، وجموع الكثرة.

٣- الكشف عن المستوى الصوتي في توظيف الحروف الانفجاريّة.

٤- المستوى الصرفي في العبارة المشهورة (زيادة في المبنى زيادة في المعنى)، وتأثيرها في المعنى اللغوي، وكذلك النفسي، والإيقاعي.

٥- استعمال الضمير المخاطب؛ ليُعرب للمتلقّي أهميّة الموعظة، فلابدّ لكلِّ مسلم أن يهتمّ بالمواعظ، فهي من المستحبّات المؤكّدة.

٦- وقد اخذنا بنظر الاعتبار خلو الخطبة من بعض الأساليب كأسلوب الاستفهام والشرط في المستوى التركيبي كونه ليس مناسباً في هذه الخطبة، وكذلك خلوّها من الجناس في المستوى الدلالي.

Abstract:-

The speech of Imam al-Baqir a contained the inadmissibility of an interesting stylistic study. It included the linguistic values and their semantic dimension, as well as the syntactic and syntactic values, as well as the interrelated relations in the unity of the text and its dimensions in context, , And by the unity of the text and its dimensions we were able to reach aesthetic values and after the influence because of the beauty of the text, and the method of engagement.

The speech included the literal and semantic levels, because of their importance in the stylistic study. The sermon is full of virtuosic virtues, and it is not imam al-Baqir a in his speech. It stops you in every position, but in every word that draws you towards it, and makes you connected to the world of matter, Because it possesses linguistic values, as well as their levels (phonetic - morphological - structural - semantic). Among the findings of the article are: attention to the role of the letters and their implications, and the unity of the text, which contained deep linguistic compositions content, but the use of reference or waving in the sermon is the most beautiful findings of the research, as well as grammatical methods of male and delete and wonder and the real question and flow in terms Unmatched.

Key words: Imam al-Baqir a, sermon, stylistic, linguistic values, syntactic values.

هوامش البحث

(١) المناقب ،ابن شهرآشوب: ٢٩/٢، بحار الأنوار، المجلسي: ١١ / ٩١.

(٢) مفاتيح الغيب،الرازي:٣٥/٣.

(٣) النظريّة البنائيّة في النقد الادبي صلاح فضل:٢١٤.

(٤) خصائص الحروف العربيّة ومعانيها، حسن عباس: ٧٨.

(٥) ظواهر اسلوبيّة في شعر احمد بدوي، عصام شرتح:١٠.

(٦) المصدر نفسه:١١.

(٧) الخصائص، ابن جنّي:٢٦٦/٣.

(٨) أضواء على لغتنا السمحة ،محمد خليفة:٤٦/٥.
(٩) النظريّة البنائيّة في النقد الادبي ، صلاح فضل:٢١٤.
(١٠) علم الدلالة دراسة نظريّة ، فريد عوض حيدر:٤٣.
(١١) شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد:٢٦/١.
(١٢) الموجز في تاريخ البلاغة ، مازن المبارك: ١٢٥.

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن ابي الحديد، عبد الحميد ،شرح نهج البلاغة،لبنان،ط١،الكتاب العربي،١٤٠٢هـ.

٢- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان بن جنّي،الخصائص،مصر،ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٤٠٩هـ.

٣- ابن هشام، عبد الله بن يوسف، مغني البيب،سوريا،ط٦،دار الفكر،١٤١٦هـ.

٤- ابن شهراشوب، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب،ط٣، الأعلمي، بيروت، لبنان،١٩٩٢ م.

٥- حسن عباس، خصائص الحروف العربيّة ومعانيها، سوريا،ط١،اتحاد كتاب العرب،١٤٢٦هـ.

٦- الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان، لبنان ،ط١، دار التراث،١٤٠٢هـ.

٧- الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب،لبنان،ط٣،إحياء التراث العربي،١٤٠٦هـ.

٨- صلاح فضل،النظريّة البنائيّة في النقد الادبي،لبنان،ط١،التراث العربي،١٤٢٦هـ.

٩- عصام شرتح،ظواهر اسلوبيّة في شعر احمد بدوي،سوريا،ط١، اتحاد كتاب العرب،١٤٣١هـ.

١٠- المبارك، مازن، الموجز في تاريخ البلاغة،لبنان،ط٢،الفكر المعاصر،١٤٢٨هـ.

١١- المجلسي، محمّد، بحار الأنوار،ط٢، المطبعة الإسلاميّة، طهران،إيران،١٩٧٨م.